محمد شوقي الزين (*)

الترجمة و الاختلاف على آثار بختى بن عودة

نبدأ من حيث لا يوجد البدء ولا المركز. نبدأ بالعنوان (الترجمة ونسف التطابق)[1] والعنوان ليس ببدء ولا بمركز لأنه ما يسمح بتأجيل الحضور ، حضور المعنى المتطابق لذاته كمركز أحادى يقصى الهوامش، يستبعد الغريب ويحتضن القريب. ليست الترجمة مركز الحديث لأن ما يقابلها هو « نسف التطابق ».

والجمع بينهما بواو العطف هو عطف detour الترجمة عن مبتغاها الأصلي عندما تنسف التطابق الكائن فى ثناياها وتنفتح وجوداً ووجدانا على الإختلاف، على الآخر وعلى الهامش، من هنا « اللغة »، كما يقول بختى، ليست وعاء ولا أداة، إنها نقلة وانتقال، مجازات عبور، إنها - والترجمة لا تنفك عن هذه الخاصية - عطف وانعطاف، مجاز واجتياز، عبور وتعبير. اللغة رحلة ومغامرة شائكة، تدق أبواب المجهول وتنفتح على الغريب lehanger وعلى الآخر lautre : (هل الترجمة، بما هى إجراء لسانى ونحوى بما هي كذلك فى الكفاية التى تتضمنها وتستثمرها هى الاختلاف نفسه ؟) انفتاح الترجمة على الآخر هو ما دفع بختى إلى التساؤل عن علاقاتها بالاختلاف كترجمة منفتحة أيضا على الأجنبى بامتثالها لقوانين الضيافة (haspitalite l كـ لغة مضيافة أو لغة ثانية deuxieme langue) بمعنى ثنائية أو ازدواجية اللغة[2] bilinguisme.

الترجمة ورمزية الجسد :

سنبدأ إذن، من « لا- بدء اللغة » بتفكيك هذا العنوان الترجمة ونسق التطابق. وسنرى بأن هذا التفكيك يخترق المألوف، ويبحث عما أسميته بـ أمر-آخر- غير - المعنى autrement-Que. -sens Le غير المعنى المألوف والمتداول والمستهلك أو بالأحدى دلالات مشتتة disseminates وموزع distrsibuees. المنطق والمنطق هو كما يلى :- (الترجمة) تعمل فى تركيبها أو تتضمن فى طيات نشأتها على (التاء) وعلى (الرجم) (التاء) الذى يؤوله ابن عربى بالجسد (corps) و(الرجم) الذى يدل على الرمى والقذف، فهل « ت / رجم » هو الجسد « جسد اللغة » الذى أنخره ومزقه الملفوظ والمقول ؟ بما أن الترجمة عبور وتعبير، فكل تعبير ينفذ قواه وطاقاته فى التمزيق وتأسيس الانزياحات les carts والفواصل (les espocernents) فقط؛ لأن التعبير جرح والكلمة كلم (جرح وشرح)[4] إذا كانت الكلمة بدء أو كان فى البدء الكلمة، فقط لأن البدء جرح وانزياح. بمعنى اختلاف وعدم التطابق. الكلمة جرح ومجروح، فعل وانفعال، ذكر وأنثى؛ الكلمة التى (le mot qui se fait chair) الكلمة - الجسد، الجسد المجروح اللفظ - الجسد، الجسد الملفوظ فى نفس الوقت الجسد الذى يعبر

(*) جامعة بروفانس - فرنسا.

عن نفسه (لأن جوافية المعنى هى إحدى هفوات العقل الميتافيزيقى) كجسد مجروح والذي تنعته أو بالأحرى تمزقه الكلمات والأقوال والجسد الملفوظ والمنزوف والملقى على هامش المؤسسة (ألم يكن تاريخ العقل المركزي للميتافيزيقا سوى الانتصار للروح على حساب الجسد وللمعنى على حساب المبنى والمدلول على حساب الدال والصوت على حساب الكتابة ؟). الترجمة تعانى إذن من هذا النزيف الداخلى أو التوتر المتواتر الذى يعرض الجسد الدال، الحرف، الكتابة) إلى وحشية الكلمات والتعبيرات (المدلول، المعنى، الصوت) والتى تقذفه تارة وتقذف به تارة أخرى. الترجمة هى بالضرورة باروكية المنشأ[5]. لأنها تتضمن على تنافر وانشطار وانصهار مبدأين فى مبدأ واحد la traductian en tant qu hermaphrodite. فالترجمة ذكورة وأنوثة، يقول بختى، بالمعنى الذى لا يليق تعسفاً بالأعضاء التى يحفظها جسد دون غيره فى جملة اسمية أو فعلية، فى ما يتعفف مخصباً البياض الأصلية والذى يكتب عليه وعلينا للإخلاف وبه. هذا البياض الأصلى هو الجسد كصفحة مواقعية طوبولوجية يستنفد فيها الإختلاف طاقته الكتابية وتستنفد فيها الكتابة قواها الإختلافية. الترجمة هى اختلاف أو وعى بالإختلاف، تحركة وتؤصله الكتابة. الترجمة هى الكتابة والإختلاف، الأثر trace والغرابة etangere تدلل على نمط وجود إستراتيجى، على اعتبار أن الكتابة هى وحدات متنافرة من المكتوب والمكبوت والمعلوم والمجهول والشعور واللاشعور وعلى أساس أن الكتابة مشتقة من الجمع الذى يتضمن على التفرقة مثل « كتيبة » الجيش التى فى وقت تأزم المواجة تجتمع وتتفرق، تتقدم وتتأخر « الكر و الفر » فى هندسة إستراتيجية وتكتيكية محكمة التصوير الفنى لهذه المجابهة يتجلى فى التقاء الأجساد (corps-a-corts) والتحامها ونزيفها كالتحام الحروف وتشابكها وتنافرها فى مواجهة الصوت ووحدة المعنى والحقيقة، (لذا يقول بختى، تبدو الترجمة يقظة وليست تقنية، كشفا وليست تنبيها، مساءلة وليست حواراً)، الترجمة كوعى بالإختلاف وممارسة للكتابة وليست تقنية رتبية تستبدل كلمة بكلمة أخرى وتعوض لغة بلغة أخرى، كما أنها تكشف من باروكية الجسد المقموع والملفوظ والمتردد (in decidable) بين صوت الكلمة وأثرها، بين صداها ورسمها، بين صراخها ووسعها، والكشف يتخذ هنا معنى كشف (aletheia)[6] جنسانية الجسد كتأنيث وتذكير، رمز وواقع، أسطورة ولوغوس، رغبة وعقل. تسائل الترجمة الأصل ولاتحاوره، ترتد به إلى مجرد أصول طاقية على سطح الخطابات، بحثا عن الاختلاف بطمس التطابق ونسف الأنا المركزي.

نسَفْ التطابق بنَفَس الترجمة :

عطف الترجمة، إزاحتها وانزياحها، تفكيكها وتوزيعها يستلزم نسف منطق التطابق. يستدعى هذا التركيب (نسف التطابق) من جانبه تفكيكا يسمح بمتابعة حركة توليد الدلالات التى ينتجها ويستهلكها على التو. النَسفْ - النفس حقيقتان لا تنفكان عن بعضهما البعض، لأن « نسف » هذا التطابق يستدعي لا محالة نفسا قوية ومقاومة لا هوادة فيها بعبارة أخرى، يقول بختي، من هو

المترجم الذي لن يرتبك أمام النفس « Le Le Souffle أمام ألام الجسد.. بما هي لغة غير لسانية ». وهذا النفس شبيه بالمعاناة الداخلية والبدنية التي تمزق الصوفي سعيا وراء التحامه بالمطلق، في رغبة متجددة تربطه بالاخر – المستحيل[7] فلا يمكن تصور المترجم إلا كنفس في محاولة نسف التطابق والحضور، يستجيب لإيقاع الكتابة، عندما تلتحم أجساد الحروف وتتنافر في مواجهة ناقوس الصوت والإغلاق الميتافيزيقي La Clotuse metaphysique ويتعرض من خلالها جسد اللغة (جسد الترجمة) إلى آلام واخترقات ومعاناة ونزيف. فالترجمة بما هي نفس ونسف لا يمكن أن تكون سوى معاناة جسد اللغة وتمزقه وتوتره وحرص اللغة على تأجيل temporisotion الحضور المطلق والتطابق المغلق. تنزاح الترجمة عن سلطة الأصل وتخترق « أحادية » الرؤية والمعنى بانفتاحها على ازدواجية اللغة في كينونتها كتابة وأثر ولعبة : « إن الترجمة إذن، يكتب بختي، مشروع صيروري سيتحايل على براءة الاختلاف على الأقل في وضعيته المفهومية، مشروع يتغذى من النقائص والتعثرات ومن ترحلات الكلام البشري والابدعات المتدفقة. الترجمة كمشروع – (Pro Jet) كشروع لم يبتدئ بعد (ما قبل (-Pro) الشروع أو ما قبل الاندفاع نحو (Jet) فقط لأن البدء انزياح واختلاف، تشظي الأنا وتخلف التطابق، وهي، أي الترجمة، تتغذى من هذا التنافر المتشظي والتعثرات المتكررة لأن اللغة ليست « هي » دائما وإذا « هي » في صيرورة وتحول، أنتقال وارتحال لا يستقر على حال، حيرة وقلق، توتر وتواتر، نزيف وابداع، خلق وتدفق.

هذا النشاط الاختلافي وهذه الصيرورة الدؤوية للغة (مرتع الترجمة) يسمحان بتاجيل الحضور وتخلف التطابق وينسفان القواعد الصلبة التى على اساسها ينغلق المعنى ويتم الحضور.

الهم الرئيسى الذى تحمله الترجمة فى طياتها هو نسف او اقتلاع جذور التطابق. والتطابق يتمتع بمركز الذى يجعل منه اكثر قوة وصلابة وجذرية وخصوصا ان معظم اشتقاقت المصدر (ط ب ق) تؤول الى الانغلاق وطمس الاختلاف: فى التطابق يوجد المطابق (la copie) والمطابقة: الموافقة والتطبيق: التغطية (الحجاب والطمس ولاقصاء) والكلية والشمول او التشميل (totaliation) والإطباق: الإجماع والاتفاق (وهو ما أسميناه بمجتمعات الخطاب بمعنى مراقبة إنتاج المعنى والحقيقة وتداولها واستهلاكها. وهذه المراقبة تنم عن مبدأ الاجتماع والاتفاق ضد التأويل والقراءة المتفتحة على الكثرة والتعدد والاختلاف والمغايرة) والطبقة: المرتبة (والتي تعبر عن التراتيب hieraschie دليل الإقصاء والنبذ والهدر). غير أن مصدر أو بدء كلمة « طبق » يختزن في ثناياه على ما يخالفه ويثور ضده ويحيله على المغايرة والتشظي، أي ينطوي على هامش يزيح عنه التمركز ويزعزع وحداته المتناسقة والمترابطة بإحالتها على التنافر والتوتر. نسف التطابق ينبغي أن يلتفت إلى الهامش وإلى العرضي وأن يفحص من الداخل وهمية الحضور الممتلئ، من داخل الكلمة عينها لا من خارجها، من داخل الأثر والعلامة والكتابة أو يقوم بعملية إغراء وخداع بحيث يكشف لمصدر « طبق » صورته الوهمية في مرآة الاختلاف والمعكوس والمنعكس والمتجلي في هذه المرآة ليس

شيئا آخر غير شبح Fantome التطابق، معكوسة المتجلي وهامشه المستبعد. فالهامش أو المختلف الذي ينبع من صلب مصدر « طبق » هي « الطبقة » ليس كتراتيب إقصائي وليس كعلاقات قوى متناحرة ومتآكلة وإنما « الطبقة » كطيات Plissements وانثناءات النص والمكتوب.

نسف التطابق يتحقق بحفريات الطبقة State وبيقظة الاستراتيجية Stategie وببصيرة الدهاء Stratageme يقول بختي يظهر التطابق Le meme كشبح إضافي، مرعب وملتبس ضد استقلالية ما تتوخاه ترجمة اختلافية، ليس كبيان ثقافي أو فلسفي وإنما كتجربة لا تكرس المهادنة مع الحضور La Presenee ولا إعادة تأسيسه بدعوى الواجب وآنية هذا الواجب. فهي تتحمل حينئذ مجموعة مخالفات وآثار واجتراحات تذخر بها النصوص بما هي طبقات وطيات. النص كطبقة وطية وليس كهندسة محكمة ووحدة وهمية هو الرهان الاستراتيجي في مواجهة الحضور وتفكيك بل وهدم التطابق : أن نعتبر العبارة كتعبير (جرح) وعبور (ارتحال) والمجاز كاجتياز والنص كنصيص (حركة وانتقال، مسار وقلق). تنكشف حقيقة النص ليس في التطابق ووحدة المعنى وحتمية الحضور وإنما في تداخل الطبقات وتشابك المجازات. من هنا كان معنى النص texte هو النسيج tissu كما يقول رولان بارت R. Barthes[8]

نسيج من الاستعارات والمجازات والتعبيرات، مجموعة مخلفات وآثار، مكتوبات وكبوتات، حقائق وأوهام، عقول وأساطير. هوية النص هي وحدة متشظية وأنسجة متشابكة وطبقات منزاحة، هي الحضور الآخر في الأنا (تجلي الأنا كأخر في مرآة الاختلاف) أو في التطابق والذي عوض أن يجذر هذا التطابق وينسق بين وحداته وبنياته فإنه يعرضه للتحول والصيرورة ويفجر الأنا إلى هويات متنافرة وأقنعة متساقطة « لنقل مثلا، يكتب بختي، كيف نترجم Les Chants de Maldoror للشاعر لوتريامون، نقصد هاهنا كلمة » مالدورور المركبة، المثنية، والمنزاحة ؟ ماهي الكلمة العربية القادرة على شق هذا التركيب والكشف عن سريته، فهل نترك مالدرور على حاله، على هويته وتطابقه أم نفكك الكلمة (أو الاسم الشخصي- nom Propre) لتصبح Mal d'ausore بمعنى « ألم الفجر » أو « جرح البدء »، البدء كانزياح وتكرار، عنف وعنفوان، ديونيزوس وأبو لون، البدء الذى يسبقه أو يتواقت معه النشيد le chant أو الصوت أى الكلمة التى تجرحه، الكلمة التى تتكلم وتجرح، تهدد وتشتت، تخترف وتمزق، أو التشيد الأصلى التراجيدى – الكوميدى tragi – comedie originaie الذى يغرد لافتتاح الوجود وانبثاق الكون cosmogonies. مهما تكن العبارة المترجمة، فالنشاط الدؤوب الذى تمارسه الترجمة هو إزاحة المعنى المتطابق كـ كينونة مغايرة، يكتب بختى، من حيث التسمية الأولى للأشياء وهى تختار اللعبة الخطيرة، أى مخالفة الإيعاز الأصلى فى « وعلم أدم الأسماء كلها ». التسمية الأولى للأشياء تعبر عن التحام الكلمة le mot والشيئ la chose وعن تحايلهما. فالتسمية

سلطة سطلة الختم cachets كعلامة تتجذر وتلتصق بالجسد، تصنفه وتموقعه وتحدد له الأمكنة والمكانات[9] فإذا كانت الحيرة تكتنف المترجم فى محاولة تعريب كلمة مالدورور Maldoror فإن بختى يتساءل عن كيفية فرنسة الحروف القرآنية: (كيف تترجم تلك الحروف القرأنية إلى الفرنسية؟ لنقل مثلا « نون » والتي يؤولها ابن عربي إلي علم الإجمال فهل نترجم أو بالأخرى (نفرنس) الحرف الأبجدى العربى (نون) بالحرف الأبجدى اللاتينى (n) على اعتبار أن (نون) هو علم الإجمال[10] la science synortiaue كإحالة إلى « وعلم أدم الأسماء كلها » وأن (n) اللاتيني هو رمز رياضى يدل على الانهائى وعلى الإجمال nie ne ؟ من هذا المنظور، لا يهم الترجمة أن تتوصل إلى كلمة فى لغة (س) تتطافق وتتطابق مع كلمة فى لغة (ع)، بل تبحث عن الفواصل والإنزياحات والاتناسقات، أى تبحث عن ذاتها كصيرورة واختلاف، إذا تترجم فإنها تؤول وتؤجل لأن جنيالوجيا كلمة فى لغة (س) تختلف عن جنيالوجيا كلمة فى لغة (ع) ككلمة (وجود) فى العربية و existence فى الفرنسية. الترجمة كصيرورة واختلاف، الإختلاف « الذى يعمل بشكل نشيط على مستوى الإنحراف المباغت للدال عن المدلول أى عن هيمنة وقهرية الشيئ » كما يقول بختى. وعليه لا تبعث الترجمة عن المعنى المتطابق كصوت داخلى أو صدى جوانى ولا تنتصر المدلول على حساب الدال وللمعنى على حساب المبنى وإنما تتجذر فى الكتابة وتنفتح على التأويل وعلى التأجيل وتعمل إلى فينومينولوجية الشيى كدال يدل على نفسه فى صيرورة لا نهائية وفى تكرار متواصل. تكسر الترجمة إذن مرأة التطابق وتحول هذا الأخير إلى مجرد شظايا متناثرة تعكس المعنى كدلالات متعددة والحقيقة كحقائق مبعثرة والنص كأنسجة متشابكة نتساءل مرة أخرى : لماذا نترجم ؟ يجيب بختى : إننا نترجم لنقول ليس فقط كفاءتنا اللسانية أو المعجمية أو الأسلوبية، بل حقنا فى الإختلاف كنقلة كونية لا تفرض على الغير نمط وجود ولا نمط تمثل للعالم. تنكشف حقيقة الترجمة كإتيكا فن الوجود تعبر عن نمط وجودنا الخاص وعن جمالية تعبيرنا ورؤيتنا وسلوكنا. فهى ليست فقط ألة فى استبدال وتعويض الكلمات والنصوص والأثار وانما تتجلى كرؤية وسلوك ونشاط صيرورى وممارسة إختلافية. إنها تعبر عن حضور الأخر (المترجم) فى الأنا (المترجم) لتزيح عنهما سند التطابق والسلطة والسيطرة، وتعطى للهامش وللعرضي حقهما فى الاختلاف وفى التعبير عن نمط وجودهما.

==========

الهوامش :

1- هذا المقال عبارة عن قراءة لمحاولة قام بها الراحل بختى بن عودة (الترجمة ونسف التطابق) بأيام قليلة قبل اغتياله فى وهران فى ماى 1995. أشكر الباحثة عمارة كحلى (جامعة وهران) التى أطلعتنى على هذه المحاولة وشكرى وامتنانى إلى الفيلسوف جاك دريدا على نصائحه واقتراحاته.

2- حول هذه الفكرة انظر :

Abdlkebir Khatibi Maghreb plusiel paris - Rabat Denael -Smer 1983 Figures de

tehranger Paris Derioes1987Abdellah Memmes, Abdelkebir Khatibi: lecitwe de la dualite, l Harmattan,1994, tacques DeRida, le Monolinguisme de l autre, Galilee, 1996

3- ابن عربى، كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار، رسائل ابن عربى، ج2، حيدر أباد، 1948 ص. 35

4- (الكلم هو الجرح وهو أثر فى المجروح، فلما وجد الأثر سمى ما وجد عنه كلاماً كان ما كان) ابن عربى، الفتوحات المكية، ج4، ص. 70، (قد يطلق الكلام على الترجمة فى لسان المترجم.. فالقول له أثر فى المعدوم) الفتوحات، ج4، ص، 400

5- باروكية baroque وللباروكي أهمية كبرى في الجمع بين المتناقضات والتفكير بمبدأ الثنائيةdualite . راجع:

christine Buel - Glucksmann, (Fitna ou la diffenrnce ins tiaitable de l amaur), jn lmaginaires de l autrs: Khatibi et la memore littceraire, j Harmattan, 1987, p. 17-48.

6- بالمعنى الإغريقى للكلمة (aletheia) تعنى الحقيقة (laverate) ككشف (devorlement).

7- انظر :

Michel de Certeau, (Mystique et psychanalyse) in Michel certeau saus la directian de juce Giard, cenere Georges Pomlidau, 1987, P. 183-1989, Michel de Certeau, la Fable mystique , Paris , Gallimard, 1982.

8- Roland Barthes, le Plaieis du texte, Paris seuil 1973, P.100 Jacques Derida, Marges de la philosophie, Paris, Minuit 1985 P. 191.

9- انظر :

Michel de Certeau, (Corps tortures , parales caltpurees) in Michel de Certeau, idem., P. 61-70.

10- ابن عربى، اصطلاحات الصوفية، رسائل ابن عربى، المرجع نفسه، ص 14.

* * * *